كاربانتيير وأدب «كوبا» السحريّ

رنا إدريس

وُلد «أليخو كاربانتيير» في «هافانا» عام ١٩٠٤. وبعد إتمام دراسته في «كوبا»، مَارس الصحافة وسُجن عام ١٩٢٧ لمدة سبعة أشهر، قبل أن يضع إمضاءه على منشور ضد الطاغية «ماشادو».

ساعدَه الشاعر الفرنسي «روبرت دسنوز»، الذي كان في «هافانا» آنذاك، على الانتقال إلى فرنسا حيث التقى «كاربانتيير» بعدد كبير من الفنانين الفرنسيين «كآرتو وبريفير وكونو».. وسَجَّل الكاتب حلقات ثقافية في الإذاعة الفرنسية.

ثم استُدعيَ إلى «هافانا» عام ١٩٣٩ لإعداد سلسلة طويلة من الحلقات الثقافيّة في عدة أقنية كوبيّة. وتلقّى دعوة من «كراكاس» لتعليم مادة تاريخ الحضارات في كليّة الفنون الجميلة في «فنزويلاّ»، وبقي في هذا البلد أربعة عشر عاماً. ثم عاد نهائياً إلى «كوبا» عام ١٩٥٩ بعد انتصار الثورة الكوبيّة.

نَشَرَ «اليخو كاربانتيير» روايته الأولى في «مدريد» عام ١٩٣٣، وألحَقَها بكتاب «تاريخ الموسيقى الكوبيّة»، وقد حَصَلَت روايته «قسمة المياه» على جائزة أفضل كتاب أجنبي في فرنسا. وفي هذا الكتاب، يفرض الكاتب نفسه كشاعر عظيم من خلال أسلوبه وثقافته وغزارة صوره وأفكاره، وسموّ إلهامِهِ واستمراريته.

كُتبت رواية «قسمة المياه» بعيد الحرب عام ١٩٥٥. وفيما كان العالم الغربي يبكي خرابه، أخذ «اليخو كاربانتيير» يصف عالماً لم تكن الحضارة قد أفسدته بعد: غابة «فنزويلا» الكبيرة، التي لم تُكتَشَف حتى عام ١٩٣٦ حين زارها الكاتب كعضو في بعثة جغرافيّة.

لقد أعدَمت حياة «نيويورك» المزيّفة موهبة بطل الرواية الإبداعيّة. فقرَّر أن يهرب بصحبة امرأة تُدعى «موش»، إلى الغابة العذراء، بحثاً عن آلات موسيقية بدائيّة. ولم تتمكّن «موش» من التأقلم على حياة الغابة فغادرتها.

وبعد مغادرة «موش» الغابة، يقع الراوي، في حب إحدى النساء الهنديات، «روزاريو»، ويلتقي بشخصيات غريبة ويكتشف أماكن فَتّانة. ويَسْتَسْلم لسحر الحياة الطبيعية. وفرح الحب والإبداع. وإذ بطائرة تَحطّ في الغابة باحثة عنه وتنشله لتعيده إلى الحضارة. ويستقبل الراوي الحضارة بشعور عنيف من الملل والسخرية. فيقرّر التخلّي عن كل شيء والعودة إلى الغابة وهنودها. لكنه لم يتعرّف على الأمكنة القديمة، فإذا بالسحر يموت، وتتزوّج «روزاريو» من رجل آخر: هكذا غدت الطريق، بعدما اكتُشِفت، ممنوعة مستحيلة.

* * *

. . . وسُمع، في الليل، قرع طويل. فوجئنا، عند عطفة صخرة ما، «بوادي اللّهب» الشاسع والحارق.

كان البعض منهم قد حدَّثني، أثناء السفر، عن مدينة وُلدت خلال أسابيع قليلة، بعد أن تفجّر النفط من أراضيها المُتوحِّلة. لكن حديثهم لم يَصف هذا المشهد الأعجوبي الذي يظهر عند كل عطفة طريق. فتُصَفِّق رَقصة اللهب الواسعة في الهواء على السهل الأجرد كأنها أعلام تُعلن غَضب الآلهة. ويهتزّ هذا اللهيب، وقد امتزج بغازات الآبار، ويرتعش مدوّياً على نفسه، حُراً وسجيناً في آن واحد. وتنتصب أذيال النار ــ هذه النار ــ الشجرة على الحائط، وتتطاير دون أن تملك القدرة على الطيران، في صرير أرجواني مُغتاظ.

ويحوّل الهواء هذا اللهب إلى أضواء مدمّرة ومصابيح ساخطة ليجمعها، فيما بعد، في حزمة مشاعل أو في جذع أحمر وأسود اللون. وتهيّج ذلك الجذع ارتعادات بشريّة شاردة. لكن الكتلة تنكسر وتهزّ الجسد الملتهب، اختلاجات صفراء. ويأخذ هذا الجسد يدور حول نفسه كأنّه دغل من النار محفوف بشرارات. ثم يمتدّ إلى المدينة كسوط طانّ لمعاقبة سكان كفّار. شاهدنا، بالقرب من تلك المحرقات[1] المتلاحمة، آلات منتظمة تتابع أعمالها الاستخراجيّة دون تعب أو ملل. وكان لرقّاص هذه الآلات مظهر عصفور كبير أسود يغرس نفسه في الأرض بحركة مواقتة، كحركة عصفور يحضر جذع شجرة ما. وتتحرّك الأشباح المُترجّحة بعناد وكأنها سَمَنْدَل انبثق من مدّ اللهب وجزره. ويرفع الهواء اللهب المتموّج حتى الأفق. أخذتُ أطلق على هذه الأشباح أسماء «كالغراب النحيل» و«النسر الحديدي» و«الشوكة الثلاثيّة الفاسدة». وإذ تنتهي رحلتنا وتظهر ساحة تتعثر فيها خنازير سوداء وأرجوانية كألوان اللهب في برك مائية مليئة بقشر مُبقّع بالزيت. وتعجّ غرفة طعام الفندق برجال يصرخون وقد لفّهم دخان شيّ اللحم. ويرتدي الرجال ملابس مُلطخة بقذارات شحميّة. يشرب الجميع دون اعتدال ويحمل الرجال زجاجات النبيذ من أعناقها أمام طاولات مليئة بورق اللعب و«الفيش» المتنوعة. وفجأة يُعلّق لعب الورق ويلتفت اللاعبون باتجاه الساحة ويطلقون صيحات مبتهجة. لقد حصل انقلاب مسرحي: ظهرت داخل عربة مجهولة المصدر، نساء يرتدين ملابس الرقص وأحذية مرتفعة الكعب. ويلمع شعرهنّ لمعاناً غريباً. ذُهلتُ لوجود تلك النساء في الساحة المتوحّلة المليئة بالمعالف. وتعكس حبات اللؤلؤ التي تُزيّن ثيابها، اللهب المرتجف. أخذ النساء يركضن وسط الرجال الداكنين، حاملات حقائبهن. وتعالت الضجّة إذ استيقظ الحمير والدجاج. علمتُ في تلك اللحظة أن الجميع يحتفلون بعيد «زعيم» المدينة، وأن تلك الراقصات ــ العاهرات يسافرن طيلة السنة من مكان إلى آخر ومن معرض إلى موكب ومن منجم إلى مزار، ليستغللن كرم الرجال أيام الاحتفالات.

* * *

. . . أمسكتُ بمعصميْ «روزاريو» لكي تهدأ، لكن عُنف حركتي هذه أوقعت إحدى سلات عالِم الأعشاب الذي كان يختبىء فيها أعشابه المجففة بين أوراق الشجر. فإذا بحشائش غليظة تحيط بنا ويغمرنا عطر شبيه برائحة الكافور والصَنْدل والزعفران معاً. ويقطع إحساس مفاجىء تنفسي: تلك كانت رائحة سلة الأسفار السحرية التي كنتُ أضع فيها حبيبتي «ماريا دل كارمن» عندما كنا طفلين، ثم أضمّها إليّ بالقرب من مزارع النعناع والريحان. أتأمّل «روزاريو» عن كثب، أشعر بخفقان عروق يديها. وأرى فجأة في ضحكتها ضحكة تحمل تشنّج الانتظار ــ القلق والموهبة والتّلهف إلى حدّ أنني رميتُ نفسي عليها، وأردتُ فقط أن أتملّكها إنه عِناق سريع وعنيف، خالٍ من الحنان، بل صِراع يدخل فيه جسدان لكي يتحطّما وينتصرا، لا لكي يتّحدا. لكننا عندما أيقنّا بما حدث، اجتاحتنا سعادة كبيرة، كأن الجسدين اتفقا على عقد سيحكم حياتنا الجديدة من الآن فصاعداً. نحن الآن متمددان على الأعشاب التي تغطي الأرض، نتأمّل ملذّتنا. يجتاح نور القمر الداخل من باب الكوخ قدمينا ببطء. وإذا به ينير عقروبينا ويتجه نحو مأبض «روزاريو» التي كانت تداعبني بيد مُتلهّفة. إنها الآن تقذف بنفسها على جسدي، لاوية خصرها من شدة اللذة. وكنا ما زلنا نبحث عن الآخر عندما فرّقنا بغتة صوت أجشّ ومُتقطّع يقذف شتائمه إلينا. كنا قد تدحرجنا تحت أرجوحة النوم ونَسينا «موش» التي كانت تئنّ بالقرب منا. وانحنى رأس «موش» المتشنج والتهكمي فوقنا. صاحت: «أيها القذران! قذران». لَطمت «روزاريو» الأرجوحة بقدميها لكي تُسكِت «موش». وحالاً اختفى الصوت من الأعلى وضاع في الهذيان. لقد اجتمع الجسدان المفترقان واعترض شعر «روزاريو» الكثيف بين وجهي ووجه «موش» الشاحب والمتدلي من الأرجوحة. غرزت «روزاريو» مرفقيها في الأرض لكي تفرض عليّ إيقاعها. عندما استطعنا من جديد أن نسمع أصوات العالم، لم نبال بالمرأة التي كانت تدمدم في الظلام. كان يمكنها أن تموت في اللحظة نفسها وأن تصرخ ألماً دون أن يؤثر ألمها علينا. كنا اثنين في عالم مختلف. رميتُ مَنيّتي فوق الزَغب الذي كنت أداعبه وسَجَنَتْ حركتي هذه التحام الدماء السعيد.

---

(١) مَحْرقة: كومة من الحطب يُربط فوقها المحكومون بالإعدام حرقاً وتشعل بهم.